حمودة إسماعيلي

# كيف تصنع مريضاً نفسياً ؟



حمودة إسماعيلي

# كيف تصنع مريضًا نفسيًا

أي عمل سبق نشره بنفس العنوان
هو مجرد ادعاء ولا وجود له

عيش الإنسان ماساة، وجوده كارثة، فخ عظيم لا سبيل للتخلص منه سوى بالألم والقهر وقتل الذات، تبنّى شوبنهاور هذه الرؤية متأثرا بالبونية، رغم أن البونية لا ترى أن الانتحار يخلصك من هذا الفخ، لأنك ستعود في دورة لانهائية من الحياة والموت بحسب قانون كارما الأخلاقي، ولاشيء يكسر هذه الكارما سوى النرفانا.. لا شأن لنا بالنرفانا هنا، ما يهم هو أن البونية ترفض العنف سواء تعلق بإيذاء الآخر أو الذات (رغم أن هناك تحايل لتبريره إن تطلب الأمر) أعلت البونية من قيمة التعاطف كسلوك بشري، واعتبره شوبنهاور أساس الأخلاق.

إن كان العيش مأساة، فعلى البشر - بنظر شوبنهاور - ألا يزيدوا من مأساة بعضهم البعض، ألا يضيفوا المزيد من القهر والأسى وأن يسعوا ليعيشوا المدة المتوفرة لهم في هذا الفخ اللانهائي بسلام وود ودون تضييق العيش على بعضهم البعض بغباء.

نيتشه بقدر ما كان معجبا بشوبنهاور بقدر ما اعتبر كلامه ناتجا عن فكرة متعفنة، "الشفقة"، ليس على البشر - بالنسبة لنيتشه - أن يشفقوا على بعضهم البعض ويتعاطفوا بينهم كما لو كانوا ضحايا كارثة، بل أن يتمتعوا بالقوة اللازمة للعيش وذلك من خلال التخلص من كل الأفكار والقيم والأخلاقيات الخائبة التي تصور الإنسان كائنا ساذجا ومقهورا بحاجة لقوى بهلوانية لإنقاذه. إن كان الإنسان - كما يرى شوبنهاور - موجودا من خلال إرادة حياة، فإن نيتشه يعتبر أن هذه الإرادة تبرز فيه كقوة، قوة في العيش واكتشاف الحياة التي تتكلف الطقوس العبثية

والتقاليد الهرائية بقمعها وإتلافها، نتيجة اعتقادات حمقاء متوارثة.

هكذا جاءت فلسفة نيتشه بمفاهيم التغلب على الألم - والألم الذي يجعلك أقوى، ورغم أنها مسائل بلهاء إلا أن نيتشه سعى عبرها لإبراز نضج الإنسان عند تجاوزه الآلام وغنائياتها السخيفة، والسخرية من كل هراء تروّجه المنابر المثالية.

كل ما لا يساهم في قوة الإنسان يساهم في جعله مريضا نفسيا، بإمكاننا اختزال فلسفة نيتشه في هذه الجملة أو إلحاقها به. هو من يقول :

ما الخير؟ - كل ما يزيدنا الإحساس بالقوة، إرادة القوة، القوة نفسها بالإنسان.
ما الشر؟ - كل ما يصدر عن الضعف.
ما السعادة ؟ - الشعور بأن القوة تزيد، بأن مقاومة قُهرت.

في فيلم Basic Instinct 2 (غريزة أساسية) يَذكُر البروفيسور جيكوب جيرست نقطة مهمة بقاعة المحاضرات حين يقول :

آخذين بعين الاعتبار من يسعون للسيطرة على الآخرين من خلال إحساسهم بانعدام الأمان والنرجسية. دراسة نيتشه من خلال سيرته النفسية قد تبدو شيئا ساذجا. أليس عمل نيتشه نفسه، عبر القراءات التفكيكية وما بعد البنيوية، هو ما أدى لموت السيرة النفسية؟

يمكن أن نستعين بشذرات سيوران للمزيد من الفهم، كما جاء :

نيتشه يرهقني. ضجري منه أحيانا يذهب حتى القرف. لا يمكن قبول مفكر تناقض مثاليته ما كان فعليا عليه. هناك شيء مثير للاشمئزاز لدى الضعيف الذي يدعي القوة، لدى الضعيف بلا رحمة. كل هذا جيد فقط للمراهقين.

وهنا نلاحظ حكما على نفسية مفصولة عن العمل، أي تقييما لنيتشه من خلال سيرته النفسية، التصرف الساذج كما ألمحت شخصية الفيلم، وهو ما استمر فيه سيوران بتفصيل مرتبط بما سبق :

عمله الأكثر أصالة في اعتقادي، رسائله، لأنه صادق فيها، بينما هو في أعماله الأخرى سجين رؤيته. في رسائله نرى أنه فتى مسكين، مريض، تماما على عكس كل ما ادعى (...) السبب هو تلك الرؤية حول إرادة القوة وما إلى ذلك. لقد ألزم نفسه بتلك الرؤية الهائلة لأنه كان عديم النفع بشكل مثير للشفقة، بيد أن كل أسسها كانت خاطئة، لا وجود لها. عمله جنون عظمة لا يوصف. عندما نقرأ الرسائل التي كتبها في نفس الفترة نرى أنه جدير بالشفقة، شيء مؤثر فعلا، إنها كما لو كانت لشخصية من شخصيات تشيخوف. كنت متعلقا به في شبابي، ولكن ليس بعد ذلك.

قد يتبادر للذهن السؤال حول ما علاقة كل هذا بصناعة المريض النفسي؟ هنا أو كل هذا يشكّل مدخل الفهم، فإذا اعتبرنا أن نيتشه - وهو النفساني المتمرس باعتراف فرويد - يهدم السيرة النفسية بأعماله - كما بالقراءة التفكيكية - ألا يعني ذلك بأن السيرة النفسية تأويل لا حقيقة! هل أدت سيرة نيتشه النفسية إلى إلغاء أعماله أو التأثير فيها؟ لم يحدث ذلك سوى عند من أقحموها تعسفيا مثلما فعل سيوران : حيث تحوّل نيتشه الواحد إلى نيتشين واحد كاتب وآخر شخص!! نفسي وتجريدي. والسؤال الذي يبرز نفسه هنا : كيف لهذا الضعيف أن يكتب بهذه القوة؟ أليست بالأخير قوته؟ قوة مخالفة لتصور المهذّبين الذين يفهمون القوة كسلطة موجّهة نحو الضعيف، بينما القوة عند نيتشه لا تنتظر اعترافا من الآخر، حالة وجود وعلاقة كونية أمام هذا الفخ الأعظم، حيث القوة كاستعراض على الضعفاء ليست بالجوهر قوة بل ضعف

الضعف الذي فهمه سيوران كقوة يحتاجها نيتشه، لأنه ربما لم يفهم نيتشه بقدر ما اتخذ من تأويل السيرة النفسية حقيقة لفهم نيتشه، وإلا ما كان سيوران كعدمي شهير أن يأفل في اقتباس من مجلة أغورا 1990 جاء فيه :

شخصيًا، أعتقدُ بأنّ الدينَ أعمقُ كثيرًا منْ أيّ نسقٍ فكريّ يأتي به العقلُ الإنسانيّ وأنّ الرؤيةَ الحقيقيّةَ للحياة هي رؤيةٌ دينيّة. الإنسانُ الذي لم يجتزْ مصفاةَ الدينِ ولم يختبرْ أيّ إغراءٍ دينيّ هو إنسانٌ فارغ. بالنسبةِ لي، تاريخُ العالَمِ معادلٌ لتفشي "الخطيئة الأصليّة" ومنْ هذه الناحيةِ أجدُ نفسي أقربَ إلى الدين.

إنها أزمة بشرية في البحث عن الخلاص من هذا الفخ الكوني، وهو ما يفسر شعور الناس بالذنب (الخطيئة الأصلية) خطيئة تواجدهم، هنا ينشأ دافع الإيمان بمخلص، هذا الأخير الذي قتله نيتشه. وكما نفى نيتشه فكرة الراعي

نفى هيوم قبله فكرة النفس/الروح الباحثة
عن الخلاص.

على غرار لوك وهوبز وباسكال، رفض هيوم بشكل أكثر تجذرا أن يكون هناك ما يدعى بالنفس، فليس هناك سوى تصورات متتالية بسرعة لامدركة تخلق إحساسا بجوهر متصل (أنا). بالنسبة لهيوم لا يمكن تحديد هذه النفس أو كشفها أو دراستها لأنه لا وجود لها بالأساس. ما يوجد هي انطباعات حسية عن الوجود (تصورات) تؤدي لتوليد أفكار تظل معتمدة في الذاكرة لخلق التمثلات وغربلة الخيال.

هكذا وبحسب برادلي، لا يظهر الطفل في الصحراء بل ينشأ ضمن بنية اجتماعية، يستلهم أفكارها، لغتها، عاداتها، والأهم من ذلك رغباتها.

يظل الإنسان سجين هذه البنية حتى تحرره

المعرفة، معرفة أن بنيته مجرد جزء من عالم لا حدود واضحة له. وليس غير الخيال سفينة سفره.

هناك صِدق في نفي هيوم لنفسية الإنسان كوهم يتلبسنا، لكن هذه الرؤية تصبح قذيفة تدمر تاريخ علم النفس بتفرعاته وعلاجاته، هل سنعالج ما هو غير موجود؟ بل الأولى من ذلك هل يمرض ما هو غير موجود؟!

في الطب نحدد المرض وندرس العضو المصاب، ثم نقوم بعلاجه عبر القضاء عليه بالمضادات أو استئصاله، لكن هذا غير متاح في المرض النفسي، لأنه حالة وليس عضوا حيويا، قد يقول قائل أن العلاج العصبي يحدد موضع المرض في الدماغ ويتخلص منه، لكن لا ننسى أن هذا لا يمت بصلة للعلاج النفسي، فقد تُخلِّص الشخص من ورم في دماغه لكن ليس هناك ضمانة بتخليصه من وهم، وهناك حالات عديدة لا حاجة لذكرها وأي مضطلع

على هذا الجانب لن ينفي هذا الأمر.

وهنا نصل لمركز قضيتنا، ما هو إذن المرض النفسي؟ وإن لم تكن هناك نفْس فكيف نقوم بصناعة المريض النفسي؟

لم يسمح لي المجال بالبداية إلى التطرق لملاحظة مهمة، وهي أن صناعة المريض النفسي ليست بذلك الشيء الذي نتخيله، والذي انتشر خلال سنوات الحرب الباردة، حيث تقوم منظمة بالتربص بأشخاص معينين وإخضاعهم لعملية تخريب أدمغتهم، بل هنالك حتى أفلام وثائقية وتقارير حول مراكز كانت خاصة بصناعة المرضى النفسيين سواء عبر السجن والفصل الاجتماعي أو عمليات التلاعب النفسي بالعقاقير أو كليهما، لكن هذا الأمر حتى لو تأكد حقيقة فهو يدخل بنطاق التعذيب وليس الصناعة، إخضاع وليس مهارة!

صناعة المريض النفسي شيء بسيط ويتم باستمرار وبكل مكان دون أن ننتبه له، إنهم نحن من نقوم بصناعة المرضى النفسيين سواء عن قصد أو بدون خلال صراعاتنا الاجتماعية اليومية : صراع رغباتنا.

بالنسبة للمرض النفسي فليس هناك من تعريف واضح، كل التعريفات لا تزيد الأمر سوى تعقيدا، دون أن ننسى تخريبية هيوم. لكن بالإمكان تحقيق بعض التوافق.

النفس هو التعبير الذي عاصر الرؤية العلمية المستغنية عن الدلالات الروحانية، فالنفس هي جوهر الإنسان بالعالم والذي سيستمر بالنسبة للمؤمنين كروح في حياة أخرى، مسألة الروح كانت ضرورية حتى تكون هناك وسيلة تواصل بين الإنسان وروح العالم، الشيء المستعصي على الفهم في العالم يتواصل مع ما هو مستعصي بالإنسان، تواصل بين قوى

خفيةً. غير أن خبرة البشر في العالم أدت للتخلي عن أيٍ مفاهيم ملتبسة، لكن نفي الروح هكذا عن الإنسان، بعدما تم نفي روح العالم، لم يكن بالشيء السهل. شكّل تعبير النفس تعويضا سَلِسًا، لكن ليس بالنسبة لهيوم!

إننا بالتأكيد ننشأ عبر تصورات، انطباعات تترسخ في أذهاننا حول ما هذا وما ذاك، ما هو سيئ وما هو جيد، تترعرع هذه الانطباعات كأفكار تحميها ذاكرتنا، فنعود باستمرار كلما غيّرت انطباعات جديدة انطباعاتنا القديمة - إلى الذاكرة لتنقيحها، ذاكرتنا ترمم باستمرار من خلال معرفتنا عن العالم، يؤثر حاضرنا في ماضينا، مثلما يساهم ماضينا في حاضرنا. كثيرا ما نعيد فهم لحظات من الماضي بسبب شيء يصل لعلمنا بالحاضر فيتضح لنا موقف أو تتغير نظرتنا له... وكل ذلك من أجل فهم واقعنا والتأثير فيه.

صرنا نفهم الآن أن كل انطباع (تجربة واقعية) يولّد فكرة والتي تظل متصلة في خط شبيه بالزمن يتضمن تفاعلا بين الانطباعات والأفكار، وبالتالي فانطباع خاطئ أو مرعب قد يولّد/يظل فكرة من نفس النوع والتي تؤثر على ما تتصل به من تفاعلات، هكذا يمكن أن نفهم المرض النفسي بظل رؤية كالتي لدى هيوم واللاغية للنفس، فهي هنا كالزمن لحظات، لكنها متصلة ومتفاعلة... بالنهاية النفسية والزمن شيء واحد، فالإنسان بحسب هايدغر يفكر ويعيش في الزمن، يتزمن، وبقدر ما يتزمن الموجود الإنساني نفسه يكون في العالم.

ماذا تكون حالة التزمن هذه؟ أهي تواجد ضمن الزمان بإدراك؟ لقد مرت الكلمة الدالة ضمن السؤال وهي : حالة، تكون حالة زمان/مكان. هل يمكن فصل نفسك عن الزمان والمكان؟ حتى في الخيال أنت ترى نفسك في مكان خاضع لزمان حتى لو كان ضد منطق

الزمان كما بالحلم.

وبالتالي فما نصفه بالنفسية والوعي والإدراك والإحساس إلخ كل ذلك لا يشكل ولا يصب سوى في أمر واحد هو "الحالة".

الإنسان حالة، وكل ما نعيشه حالات متغيرة غالبا ما نجد لها ترابطا تسلسليا لنكون "نحن"؛ أنا و أنت، حالات متراكبة شكلت قصة شخصية لكل واحد. الحالات ليست مرتبطة بعضها ببعض إلا من خلالنا، هي خاضعة لتواجدنا بالزمكان ومتغيراته. نأتي بحالة ولادة، ثم تتم عملية فهمنا للعالم من خلال تبني حالة المكان عصبيا، نفهم ذواتنا كمكان، يوجد فيه ما هو نحن، بنيتنا النفسية متشكلة لغويا بمفاهيم مكانية، فالنجاح لدينا إحساس وتعبير صعود، والفشل إحساس وتعبير سقوط، هناك فوق وتحت اجتماعي، هناك وراء وأمام زمني، لكن بالحقيقة ليس هناك سوى إدراك لحالة الزمكان، طبعا نقوم

بفصل للمكان والزمان كأنهما شيئين أو يمكن أن يتواجدا منفصلين، رغم أنهما نفس الشيء.

وإن بدا ما سبق ملتبسا فنلك لأجل عرض هذا المثال : نفترض أننا بغرفة، أنا و أنت نجلس بمكان، إنها حالة زمكانية، نخوضها كلانا، لكن بحكم تسلسلك المختلف عن تسلسلي أي تجارب الذاكرة المختلفة والخاصة بكل واحد، فإننا نعاين الوضع كحالتين، حالتي تختلف نسبيا عنك من خلال ما يدور في رأس كل واحد بنفس اللحظة. لكن ماذا لو قمنا بمحو دماغ كل من الشخصين المتواجدين بالغرفة، ساعتها لن تكون هناك سوى حالة واحدة، حالة زمكان موحدة.

لكن ليس هناك من توحد زمكاني للوعي، الموقع الذي تشغله لا يشغله غيرك بنفس اللحظة وإلا سنصبح جسيمات بقصة خيال علمي، هناك اختلاف بالحالات؛ بهذا نصل

لمنطقة مهمة متعلقة بمسألتنا هنا : فكر دونالد إيوين كاميرون.

كاميرون هو طبيب أسكتلندي اشتغل بالولايات المتحدة الأمريكية وكندا التي استقر بها، ترأس عدة جمعيات في طب النفسي، لكن ما يميزه هو سمعته السيئة التي ارتبطت بصناعة المرضى النفسيين وغسيل الدماغ، هذا التشويه هو ما أدى للتغاظي عن فكره ورؤاه حول الطبيعة البشرية. صار اسم كاميرون مقرونا بتخريب العقول وتدمير النفسيات، لذلك لن يضيرنا أن نفهم كيف تم ذلك لنعرج بعدها على فكره.

بدأ الأمر بعد وفاة كاميرون بسنة، عندما تم نشر مقال بجريدة نيويورك تايمز يتحدث عن كشف وثائق حول مشروع قامت به وكالة المخابرات المركزية CIA متعلق بغسل الأدمغة، وكان مضمونه مبنيا على ما جاء بكتاب منشور حول نفس الموضوع لجون

د.ماركس يرفع السرية عن هذا المشروع الخفي. فحدث أن قامت فيرما أوركيلو زوجة سياسي كندي برفع دعوة، لتتوالى دعوات عدة مرضى على غرار فيرما تذكروا أنهم خضعوا لغسيل الدماغ والتعذيب في منشأة كندية أجرت مشروع MK-Ultra بتمويل المخابرات الأمريكية وتحت إشراف الدكتور كاميرون، حيث تم فيه تخريب أدمغة المشاركين في البحث خلال خمسينيات وستينيات القرن الماضي، تمت مطالبة الحكومة الكندية بمليون دولار كتعويض فتمت التسوية ب100 ألف دون صدور أي قرار رسمي يؤكد أو يكشف أطوار المشروع.

ادعى أبناء وأحفاد المشاركين في تجربة كاميرون، أن الجد أو الأم أو الأب (فرد العائلة المصاب) الذي شارك بالتجربة قد تعرض لمحو دماغي، قاموا بإفراغ روحه بالاعتماد على تقنيات الصعق بالكهرباء واستخدام LSD المخدر الذي تم إنتاجه

لأغراض طبية - دواء تعلقت عليه الآمال قبل انتشار الشائعات باستخدامه من طرف CIA كوسيلة للسيطرة على عقول الجنود والمرضى. كل ذلك مثّل مادة خصبة للصحافة ومخرجي الأفلام الوثائقية وحتى السينمائية.

لنترك مسألة غسيل الدماغ ولنتطرق لكاميرون، من غير المستبعد أن تهتم CIA بكاميرون، لماذا ؟ لأنه إبان الحرب وما بعدها كان مهتما بالكيفية النفسية لصعود النازية، كيف تظهر الفاشية في الدولة؛ من جانب آخر كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية مهتمة بكيفية القضاء على المد الشيوعي.

في بحثه حول الطبيعة البشرية، قسم كاميرون الناس إلى نوعين : الأقوياء والضعفاء. ليس من جانب دارويني إنما من زاوية نفسية، الأقوياء هم الذي نشؤوا في ظروف مكّنتهم من تحقيق نفسية قوية قادرة على جعلهم

يتحملون المسؤولية ولهم رؤية ورأي مستقلين؛ والضعفاء هم الذين بسبب ظروف تنشأتهم يتمتعون بنفسيات هشة.

بالنسبة لكاميرون كل المصائب تأتي من ذوي النفسيات الهشة، أي الضعفاء. وقد قام بتصنيفهم أيضا ضمن 4 أصناف : الجبان، الغيور، المهدِّد، المختل اجتماعيا.

بالنسبة لكاميرون فالمرض النفسي ليس مجرد حالة، بل حالة معدية، يمكن لسمات مرضية أن تنتشر بسرعة في تصرفات الآخرين لهذا كان يشدد على خطورة هذه الأصناف على استقرار المجتمع ووقف حالاتها قبل أن تتطور وتنشر عدواها.
فالجبان ليس لديه رأي أو موقف محدد، هو مستعد لتبنّي أي موقف والدفاع عن أي رأي، مجرد قشة تتحرك أينما اتجهت الرياح.
الغيور أو الحسود حالة تخفي مكائدها وتُسبب أضرارا للآخرين في صمت، شخصية قد

تُظهر عكس ما تُبطن وتشكّل بذلك خطرا على من حولها.

المهدِّد حالة لا تشعر بالأمان سوى بجذب أتباع حولها يتبنّون آراءها ويدافعون عنها، شخصية تعتمد بالغالب على شخصية الجبان المستعد لتبنّي أي موقف، هذه الشخصية التي تحتمي بالجماعة وتختفي وراءها تشكّل خطرا عندما تتسع قاعدتها الجماهيرية لتكشف عن شكل من أشكال الفاشية وتسيطر على مسائل الصح والخطا في المجتمع وتمنع وتقمع أي تغيير أو معارضة.

أما المختل اجتماعيا فهو السايكوباثي الذي يترصد فرصة القيام بتخريب دون تقدير للعواقب.

انصب بحث كاميرون على كشف هذه الأصناف وعزلها عن الآخرين لعلاجها، فهذه الحالات تنتشر بسرعة خصوصا أن هناك قابلية لتبنّي الاختلالات النفسية عند الناس خلال حالات الضغط والتوتر وعدم الاستقرار.

وهدِف أيضا إلى إنشاء مشروع نفسي تعتمده المؤسسات التعليمية والمستشفيات والسجون والإدارات حيث يتم عزل سمات الشخصيات الضعيفة في عملية التربية والتكوين، أراد استئصال هذه العدوى من جذورها من خلال تأطير الناس نفسيا حتى لا ينزلقوا لتبنّي هذه السمات المعدية، خصوصا وهم أطفال. ويبدو جليا أن مساره البحثي متأثر بميله الأصلي في اكتناه الفاشية.

كاميرون نوعا ما محق وهناك حادثة قد تُقرّبنا من فهم أوسع لهذا التوجه. سبق وعرضتُ تمثّل الحالة الزمكانية وتسلسلاتها وأظن بانها صارت واضحة، بذلك يمكن أن ندرك المرض أو الخلل النفسي كحالة تقع فيها صدمة أو هلع - ضمن الحالات التسلسلية التي سبق أن أتيتُ على ذكرها - قد تؤثر ليس فقط على تسلسل الحالات التالية بل حتى سابقتها، أي الماضي وتُخضعه للتساؤل أو حتى عدم الثقة في فائدته معرفيا! وهذا أمر

مفهوم في اضطرابات ما بعد الصدمة بل حتى فرويد يُرجع سبب وبداية الوسواس القهري بتعقيداته إلى حالة/موقف صدمة لها ارتباط بما هو جنسي. صدمة الحالة/الموقف هذه قد تؤثر على باقي الحالات التسلسلية التالية أو الشبيهة بها طبعا مثل عودة أعراض صدمة الموقف الأول عند ملاحظة أشياء تُذكّر بها (صورة، صوت، رائحة إلخ) في حالة تالية أخرى عادية. وليس الأمر مقرونا فقط بصدمة، بل أي موقف بغيض يتكرر أو ضغط مستمر ممكن أن يؤدي لخلل بتسلسل الحالات ويُحدث ما يمكن أن ندعوه بالمرض النفسي، وهدف كاميرون كان التدخل بهذه الحالات، وقف تطورها أو تمكين الشخصية من مرونة التعامل معها وتجاوزها. زيادة على أنه مثلما رفض لاوعي فرويد رفض تقنيته العلاجية بالعودة لذكريات الطفولة وتفكيك تسلسل الأحداث/الحالات والمشاعر المصحوبة (التداعي الحر)، رأى كاميرون أن الصدمة تعيد برمجة الماضي مثل Update

إعادة صياغة للتعامل مع التوقعات الجديدة، لا يعود هناك نفع للماضي، ومن هنا تسربت أفكار محو الذكريات بالتدخل الاختياري!
يمكن أن نفهم مع كاميرون أن المشكلة ليست في الصدمة بل في تجاوزها، والنفسية الهشة غير قادرة على ذلك.

وإن ظل هناك التباس فيما سبق، فهنا يأتي دور الأمثلة للتوضيح أكثر : بعد أحداث 11 سبتمبر الإرهابية، استفاذ الناجون من برنامج علاج نفسي، ونظرا للعدد الكثير من المستفيدين، كان المعالج النفسي الواحد يستمع لعدد كبير من المرضى حول الأحداث وترتباتها، هنا ظهرت مشكلة، فنظرا لأن المعالج لم يسبق له معاينة هذا العدد في اليوم ونظرا لقسوة الأحداث، هناك من بدأت تنتقل له الصدمة، وهي حالة معروفة تسمى الصدمة بالتناوب، يحكي أحد الأطباء أنه ذات يوم وبعدما انفتح المصعد نظر أمامه فبدأ يتخيل وجود أطراف متناثرة مثلما كان يستمع

في الجلسات، أيضا الشعور بأن هجمة إرهابية قد تقع، هذا ما دفع لخلق برنامج تطهير ضمن نفس المشروع، وذلك بأن يخضع المعالج لجلسة نفسية عندما ينتهي من جلساته مع ضحايا الصدمة، وكان قد سبق لفرويد أن نبّه لهذه المسألة، فمن غير أنه من المفروض على المحلِّل أن يخضع للتحليل قبل امتهان الممارسة، بل أيضا أن يخضع له عند زميل كلما شعر بضرورة لذلك.

فلنتخيل الأن حجم العدوى المنقولة من الأحاديث اليومية والحسابات الالكترونية والفيديوهات التي تعرض الكوارث والاعتداءات دون استبيان.

نعد لمسألة غسيل الدماغ، وسأتجاوز ما تعلق بكاميرون لأنه من المستحيل محو دماغ إنسان حتى لو تم ضربه بالليزر ليس فقط صعقه بالكهرباء - هناك حالات خبل أشبه بفراغ الدماغ لكنها حالات عصبية معقدة سبق

وعرضها داماسيو وساكس - هناك انقطاعات بالذاكرة كأن تتوقف عند سن معين ولا تستقبل ذكريات جديدة، أن يتم فقدان جزء منها أو نسيان أحداث معينة أو خلط بين الأشياء أو تبنّي ذكريات خيالية أو استبدال ذكريات بأخرى إلخ لكن محو عن قصد فهذا يليق بإعدام في فيلم كوري!

يعود مفهوم "غسيل الدماغ" الذي انتشر بالخمسينيات وما بعدها إلى الصحفي الأمريكي إدوارد هانتر الذي كان مهتما بتغطية صعود الفاشية خلال سنوات الحرب، وأطلق هذه التسمية على الحالة التي تصف ما حدث للجنود الأمريكيين الذين شاركوا بالحرب الكورية التي نشبت مع بداية الخمسينيات بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية، تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية لمساعدة الجنوبيين - استمرارا لمشروعها العالمي في وقف المد الشيوعي، وهرعت الصين من جهتها لمساعدة الشماليين.

بعد سنتين من وقف الحرب بهدنة، حدث أن انقلب الجنود الأمريكيون الأسرى أيديولوجيا وتبنّوا الشيوعية دون تراجع. قدّم هانتر حلا لهذا اللغز في "غسيل الدماغ" الذي خضع له الجنود بالمعتقلات الكورية حيث تم الاعتماد على تقنيات صينية في التلاعب بالدماغ.

تبنّت وزارة الدفاع الأمريكية هذا التفسير، ورأى الجنرال وليام ماير كبير المحللين النفسيين بالجيش الأمريكي الذي عاين حالة الجنود، أن هؤلاء الأسرى لم يتعرضوا للتعذيب، لم تُغرس الإبر تحت أظافرهم، لم يتم ضربهم أو تقييدهم، تم سجنهم بشكل طبيعي، يتلقون ما يحتاجونه من أكل وشرب ولوازم وحرية داخل المعتقل. فما الذي حدث؟ توصل ماير إلى أن الكوريين دفعوا الجنود نفسيا وبشكل تقني إلى فقدان الثقة في أيديولوجيتهم الأمريكية، وسعوا رويدا رويدا إلى تحسين معاملة أي جندي أمريكي يبدي اهتماما بالشيوعية.

من السهل فهم ما وقع للجنود دون حاجة لتبنّي مسألة غسيل الدماغ، بل من جانب اضطراب الصدمة وآثارها، لقد توقع الجنود الأسرى أنهم سيتعرضون لأبشع تعذيب بالسجون الكورية، هذا كاف ليجعلهم في حالة توتر شديد أو يدخلهم في صدمة، في الأسر عاشوا حالة ترقب وانتظار مخيف وبغيض، وليس مستبعدا أن ينشر الكوريون بطريقتهم داخل السجن شائعات عن التعذيب وتجنبه إذا هم انخرطوا في الموقف الشيوعي... عيش الجنود بشكل عادي وطبيعي داخل السجن سيشكل لهم نوعا من الحيرة والاضطراب، دون ذكر الضغط النفسي المرتبط بالجهل التام بمآل الحرب وإمكانية أن يظلوا أسرى إلى أجل غير محدد، شعروا كأنهم متخلى عنهم وقد ذكر ماير أن الكوريين دفعوهم منهجيا إلى اليأس المطلق، لم يعد لهم إيمان بالأيديولوجية الأمريكية وبمدى نفعها وأهميتها هنا. إذن ليس غريبا أن يتبنّى الجنود الأيديولوجية الشيوعية خصوصا أنها تُبشّر

بإمكانية إنقاذهم وتقبلهم، وإذا استوعبنا أن حالة الصدمة تستمر في تذكير صاحبها بأن الموقف قد يتكرر وبانه لم يعد في أمان، فمن الطبيعي ألا يتخلى عن شيوعيته خصوصا وأنها كانت سبيل نجاته، حتى بعد عودته للوطن، لأنه في اضطراب ما بعد الصدمة لم يعد له إيمان سوى بما أنقذه، لن يتخلى أي شخص هنا عن شيوعيته بسهولة.

عادت مسألة "غسيل الدماغ" لتترسخ بشدة في نهاية السبعينيات مع فاجعة جونز تاون، وهو مجتمع مغلق تم تأسيسه بغيانا الاشتراكية التي تقع بالساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية، من طرف زعيم ديني يدعى جيم جونز وأتباعه الذين تجاوز عددهم الألف. بعد حوالي 3 سنوات على حج الأتباع لهذا المخيم أو المعبد الذي سيحميهم من نهاية العالم، حضر السيناتور الأميريكي ليو رايان مرفوقا بصحفيين للاضطلاع على ما يجري، بادر بعض الأتباع بالطلب من السيناتور إنقاذهم

من هذا السجن وترحيلهم للولايات المتحدة الأمريكية، لكن حدث أن قام أتباع موالون لجونز بقتل السيناتور ومن معه قبل عودتهم. أدرك جيم جونز خطورة الموقف فجن جنونه، وبدأ يُرهب أتباعه بأن الولايات المتحدة الأمريكية سترسل الدعم وسرعان ما سيجدون جنودا مسلحين ومدربين قادمين لسلخهم أحياء عن آخرهم، سينتزعون جلود أبنائهم أمام أنظارهم، وطبعا بما أن المعبد بالأصل مجتمع مضطهد لا فكرة له عن العالم سوى عبر كلام زعيمهم جونز، فقد كان ذلك كافيا لإطلاق شرارة رعب تمس كل أفراد المخيم بعدوى الفزع والصدمة، فلم يكن هناك حل بالنسبة لجونز سوى اقتراح انتحار جماعي عبر التسمم بالسيانيد، وسواء كان الاقتراح مدعوما بفكرة انتقالهم نحو عالم آخر أو لا فقد أتى أكله وأقدم أكثر من 900 شخص على قتل نفسه وذلك بداية بتسميم الرضع والأطفال ثم البالغين! المثير للسخرية وبحسب ما روي فإن جونز خطط للهرب لينجو بحياته بعدما

دفع بمئات الأشخاص نحو الموت ودمر حياة أبنائهم، وُجد مقتولا برصاصة في رأسه، ورغم أن المكلف بالتحقيق يفسر الأمر بأنه يتسق مع الانتحار إلا أنه واضح أن أحد الأتباع هو من قام بإفشال خطته والانتقام من خيانته.

كارثة لا يستوعبها العقل عند أول وهلة، وقد كُتِب عنها الكثير وتناولتها البرامج الوثائقية. ريبيكا مور من جامعة سان دييغو رفضت أن يكون ما تعرض له الأتباع غسيلا دماغيا، نشرت مقالا بعنوان "خرافة غسيل الدماغ" تُوضّح فيه أن غسيل الدماغ لا يعدو عن كونه هراء علميا لا يعتمد على أي أساس أو اختبار موضوعي. ريبيكا فقدت أختين وابن أخت في جونز تاون، ورفضت تبنّي فكرة أنهم تعرضوا لغسيل مخ، بل أكدت أنهم على الأقل الأختين اختارتا هذا الأمر بكل حرية ووعي، وذهب تحليلها باتجاه كاميرون كما أسلفت حوله؛ ليست القضية أكثر من مجموعة

ضعاف النفوس وجدوا اعتقادا يستمدون منه قوة، اعتقاد قام بترويجه شخص مهدّد ومختل ابتغى بدوره أن يحتمي بهم. اعتبرت ريبيكا أنه لو كان هناك غسيل للدماغ لما حدث انشقاق عند بعض الأتباع، لما ارتد كل من تخلوا عن اعتقاداتهم بالجماعات الدينية الصارمة الموسومة بممارسة برمجة أتباعها، ذكرت ريبيكا أن غسيل الدماغ تعبير مريح خصوصا لمن يكتشفون سذاجتهم عند اتباع جماعة ما أو في الحالات السيئة يجدون أنفسهم مرتكبين لجرائم باسم العقيدة، يتمكنون من إخلاء المسؤولية عن أنفسهم بادعاء أنهم تعرضوا لغسل دماغي.

لا يمكن أن ننفي تعرض البشر للتأثير، بكل يوم بل بكل لحظة يكون الإنسان معرضا لشتى التأثيرات والإيحات التي تؤثر في حالته، نحن نرى أشياء نسمع أمورا نتعرض لمؤثرات تغيّر حالتنا اللحظية، كاتب الخيال العلمي فيليب ك.ديك يرى أن سلسلة كلمات

- جملة معينة، لها قدرة تدمير شخص؛
وذهب فرويد إلى أن الحضارة بدأت عندما ألقى شخص بشتيمة بدل أن يلقي بحجر على خصمه. ليس الأمر لهذه الدرجة، فموقف بغيض يتكرر، العيش في ظل ضغط، التعرض للسخرية والإهانة بشكل مستمر، أمور قد تبدو عادية وروتينية لكنها كافية لتدمير شخص. فالشارع، أماكن العمل، الأصدقاء، العائلة، كلها تساهم بطريقتها ونسبتها في خلخلة حالات الإنسان ودفعه للاضطراب والمرض النفسي.

إننا نعيش في بيئات تنافسية، تزداد حساسية الناس في المجالات المشتركة من بعضهم البعض، وليس فقط عند البشر، فحتى في تجربة حول القردة، تم وضع قردين منفصلين كل واحد منهما بقفص لكنها يريان بعضهما وما حولهما، وكانت التجربة تقوم على أن يُقدم القرد حجرا كل مرة إلى المراقب فيحصل على جائزة، كل مرة تتم فيها العملية

كان المراقب يمنح القرد الأول حبة فراولة والقرد الثاني قطعة خيار، عندما أدرك القرد الثاني أن زميله يحصل على الفراولة، استشاط غضبا، وبدأ كل مرة يحصل فيها على قطعة خيار يلقي بها في وجه المراقب ويصرخ وهو يضرب القفص. كانت تجربة لاختبار الحس بالعدالة الاجتماعية عند الحيوان.

ينظر البشر إلى الأمر بنفس الطريقة، من الممكن أن تدفعهم للانهيار أو فقدان السيطرة على أنفسهم إن علموا أنهم تعرضوا للاستغلال، لمنح الأفضلية لأقرانهم ومنافسيهم، لتضييع مجهودهم، للحط من قيمتهم، لسلبهم أحلامهم، لمهاجمة شغفهم، لكل ما يمس هويتهم الشخصية ويقلل من اعتزازهم الذاتي. وليس بالضرورة أن يتم الامر بشكل مباشر، بل حتى بطرق غير مباشرة، وهناك قصة واقعية أود أن أختم بها نظرا لدلالاتها ومضمونها الذي يمكن أن

يتكشف للواحد عبره شيء ما مرتبط به وبمحيطه، لأننا نعلم أن البشر طيبين بطبعهم وسيتمنون لك الخير لكن ليس ان تكون أفضل منهم. يرى ألفرد أدلر أن الشعور بالنقص هو الأساس العاطفي الذي سنجده خلف الاضطرابات والاختلالات النفسية بل يضعه كمحفز عندما يستبدل به مركب الأوديب الذي اختلف حوله مع فرويد. الشعور بالنقص يتحكم في الناس ويسم اضطراباتهم خصوصا عندما يعجزون عن حل إشكالاتهم ، لكنني أرى أن الحسد أكثر أساسا وعمقا، لأن الشعور بالنقص ناتج إحساس/وعي بمقارنة؛ عموما كلاهما يشكلان بحثا عن تعويض، قد يكون إيجابيا كالتنافس أو تخريبيا كتدمير تألق الآخرين.

جو أورتن 18 سنة و كينيث هاليويل 25 سنة، التقيا بين طلبة الكلية الملكية للفنون المسرحية في لندن سنة 1953، نشأت بينهما صداقة لتتطور إلى علاقة حب نظرا لميولهما

المثلية، كانا يأملان بأن يصيرا ممثلين، وبما أنهما لم يحققا أي تقدم يُذكر اتجها للكتابة أملا في تحقيق أثر وإن كان مختلفا لكنه يظل ضمن نفس المجال، لكن قصصهما لم تجد صدى أو أدنى اهتمام، فاتجهت بهما خيبة أملهما نحو الأعمال التخريبية، كان هاليويل قد ورث مالا ينفقانه سويا، وبما أنهما لا يجدان ما يفعلانه وحاقدين أدبيا انطلقا في عملية استهداف مكتبات المدينة، يأخذان الكتب ويقومان بتشويه أغلفتها بالصور الإباحية والسريالية يلصقون عليها الصور التي تتضمن الحيوانات وأشخاصا بوشوم أو أي شيء غير لائق يجدونه بالمجلات الشعبية، وصل الأمر حد 70 كتابا ليتم إيقافهما والحكم عليها بالسجن 6أشهر على أعمالهما التخريبية. كل من أورتن وهاليويل تم إيداعه بسجن مختلف، فترة كانت تأملية لأورتن أعاد فيها صياغة أفكاره ورؤيته، بعيدا عن تأثير رفيقه. بعد سنة من خروجهما من السجن وكانت السنة العاشرة لعلاقتهما

اشترى راديو BBC مسرحية من أورتن ليتم عرضها بعد سنتين، بعد ذلك تم إعادة كتابتها حتى تلائم عروض المسارح، ورغم أن عمله التالي لم يلقى ترحيبا إلا أن مسيرة أورتن كانت قد انطلقت بالفعل بسلسلة نجاحات متتالية دفعت أشهر فرقة موسيقية ببريطانيا The Beatles لأن تطلب منه كتابة سيناريو عنهم سنة 1967، كل ذلك أمام أنظار هاليويل الذي لم يحقق شيئا، سوى كمساعد وكمرافق لأورتن بحفلاته ولقاءاته وعروضه. صار هاليويل يرى نفسه النقيض لأورتن، الذي أصبح يمثل الجمال والنجاح والشهرة وهاليويل القبح والفشل والتجاهل، فبعدما نفذ المال الذي كسبه من الميراث صار يعول على أورتن، فشل حتى بالمشاريع التي دعمها له أورتن.

شكّلت 1967 السنة الدرامية، فحين كان أورتن في أوج نجاحه كان هاليويل في أسوء حالة نفسية، سافرا مع استقبال الربيع إلى ليبيا

للاستجمام، غير أنهما عادا بعد يوم بسبب حالة هاليويل السوداوية وعدم ارتياح أورتن هناك. لكن بعد شهرين قررا قضاء العطلة في مدينة طنجة بالمغرب وكان شهر ماي، غير أن أورتن أدرك أن علاقته بهاليويل لا يمكن أن تستمر، مع بداية شهر غشت أخبر أورتن أحد أصدقائه بأنه لم يعد يتحمل هاليويل وينتظر الفرصة لكي ينهي علاقتهما. اضطلع هاليويل على مذكرات أورتن السرية، كان أورتن مدركا لكل شيء، تحدث عن بدايتهما وكيف أن إنجازاته جعلت هاليويل يتغير ويكن له الحقد والضغينة التي كانت واضحة في تلميحاته وتعليقاته بالحفلات، وكيف أن مشكلة هاليويل النفسية ليست سوى أزمة من جهة أورتن التي تفاقمت عندما تصاعدت وتيرة نجاحه دون وقوع أي إخفاق يخفف عن هاليويل، زيادة على ذكره لأحباء آخرين وازدراء هاليويل. تلك كانت القطرة التي أفاضت الكأس، فبيوم الأربعاء 9 غشت 1967 انهال هاليويل على رأس أورتن ب9

ضربات بالمطرقة في بيتهما بلندن، سلوك يكشف عن حجم الغل، ليقوم بعدها بالانتحار بجرعة زائدة من مهدئ البنتوباربيتال، تاركا ملاحظة اقرؤوا مذكراته لتفهموا كل شيء. تم اكتشاف جثتيهما صباح اليوم التالي عندما حضر السائق الذي كان سيقل أورتن لمقابلة مخرج فيلم فرقة البيتلز.

حمودة إسماعيلي
2019